{ قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ } * { ٱللهُ ٱلصَّمَدُ } * { لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ } * { وَ لَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ }(1-4)

قلت: { هو } ضمير الشأن مبتدأ، و الجملة بعده خبر، و لا تحتاج إلى رابط، لأنها نفس المبتدأ، فإنها عين الشأن الذي عبّر عنه بالضمير، و رفعه من غير عائد يعود عليه؛ للإيذان بأنه الشُهرة و النباهة بحيث يستحضرة كلُّ أحد، و إليه يُشير كل مُشير، و عليه يعود كل ضمير، كما يُنبىء عنه اسم الشأن، الذي هو القصد. و السر في تصدير الجملة به للتنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها، و جلالة حيزها، مع ما فيه من زيادة تحقيقٍ و تقرير، فإنَّ الضمير لا يُفهم منه من أول الأمر إلاّ شأن مبهم، له خطر جليلٍ، فيبقى الذهن مترقباً لِما أمامه مما يفسره و يزيل إبهامه، فيتمكن عند و روده له فضل تمكُّن. و كل جملة بعد خبره مقرِّره لِما قبلها على ما يأتي.

يقول الحق جلّ جلاله مجيباً للمشركين لَمّا قالوا: صِفْ لنا ربك الذي تدعونا إليه، و انسبه؟ فسكت عنهم صلى الله عليه و سلم فنزلت، أو اليهود، لَمّا قالوا: صِفْ لنا ربك و انسبه، فإنه وَصَفَ نفسه في التوراة و نَسَبَها، فارتعد رسولُ الله صلى الله عليه و سلم حتى خَرّ مغشيًّا عليه، فنزل جبريلُ عليه السلام بالسورة. و يمكن أن تنزل مرتين كما تقدّم.

فقال جلّ جلاله: { قل هو اللهُ } المعبود بالحق، الواجب الوجود، المستحق للكمالات { أحَدٌ } لا شريك له في ذاته، و لا في صفاته، و لا في أفعاله، لا يتبعّض

و لا يتجزّأ, و لا يُحد، و لا يُحصَى، أول بلا بداية، و آخر بلا نهاية، ظاهر بالتعريف لكل أحد، باطن في ظهوره عن كل أحد.

و أصل { أحد } هنا " وَحَد " فأبدلت الواو همزة، و ليست كأحد, الملازم للنفي، فإنَّ همزة أصلية. و وصفه تعالى بالوحدانية له ثلاث معان، الأول: أنه لا ثاني له، فهو نفي للعدد، و الآخر: أنه واحد لا نظير له و لا شريك له، كما تقول: فلان واحد عصره، أي: لا نظير له، الثالث: أنه واحد لا ينقسم و لا يتبعّض. و الأظهر أن المراد هنا: نفي الشريك، لقصد الرد على المشركين. انظر ابن جزي.

{ اللهُ الصمدُ } و هو فَعَلٌ بمعنى مفعول، من: صمد إليه: إذا قصده، أي: هو السيّد المصمود إليه في الحوائج، المستغني بذاته عن كل ما سواه، المفتقِر إليه كلُّ ما عداه، افتقاراً ضرورياً في كل لحظة، إذ لا قيام للأشياء إلاّ به. أو الصمد: الدائم الباقي الذي لم يزل و لا يزال، أو: الذي يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد، والذي يُطْعِم و لا يُطْعَم و لا يأكل و لا يشرب، أو: الذي لا جوف له، و تعريفه لعلمهم بصمديته، بخلاف أحديته.

و تكرير الاسم الجليل، للإشعار بأنَّ مَن لم يتصف بذلك فهو بمعزلٍ عن استحقاق الألوهية، و التلذُّذ بذكره. وتعرية الجملة عن العاطف، لأنها كالنتيجة عن الأولى، بيَّن أولاً ألوهيته عزّ و جل، المستوجبة لجميع نعوت الكمال، ثم أحديته الموجبة لتنزّهه عن شائبة التعدد و التركيب بوجهٍ من الوجوه، و توهم المشاركة في الحقيقة و خواصها, ثم صمديته المقتضية لاستغنائه الذاتي عما سواه، و افتقار المخلوقات إليه في وجودها و بقائها و سائر أحوالها، تحقيقاً للحق, و إرشاداً إلى التعلُّق بصمديته تعالى.

ثم صرّح ببعض أحكام مندرجة تحت الأحكام السابقة، فقال: { لم يلدْ } أي: لم يتولد عن شيء، ردًّا على المشركين، و إبطالاً لاعتقادهم في الملائكة و المسيح، و لذلك ورد النفي على صيغة الماضي، أي: لم يصدر عنه ولد؛ لأنه لا يُجانسه شيء يمكن أن يكون له من جنسه صاحبة ليتوالدا، كما ينطق به قوله تعالى:

{أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ}

[الأنعام:101]، و لا يفتقر إلى ما يُعينه أو يخلفه؛ لاستحالة الحاجة عليه، لصمدانيته و غناه المطلق.

{ و لم يُولدْ } أي: لم يتولد عن شيءٍ، لا ستحالة نسبة العدم إليه سابقاً و لاحقاً. و التصريح به مع كونهم معترفين بمضمونه لتقرير ما قبله و تحقيقه, و للإشارة إلى أنهما متلازمان، إذ المعهود أنَّ ما يلد يولد، و ما لا فلا، و مِن قضية الاعتراف بأنه لم يلد: الاعتراف بأنه لم يُولد، { و لم يكن له كُفُواً أحَدٌ } أي: و لم يكن أحد مماثلاً له و لا مشاكلاً، مِن صاحبة أو غيرها. و (له): متعلق بـ "كُفُواً " ، قدمت عليه للاهتمام بها؛ لأنَّ المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى، و أمّا تأخير اسم كان فلمراعاة الفواصل. و وجه الوصل في هذه الجُمل غَنِي عن البيان.

هذا و لانطواء السورة الكريمة، مع تقلب قطريها، على أنواع المعارف الإلهية و الأوصاف القدسية، و الرد على مَن ألحد فيها، ورد في الحديث النبوي: أنها تعدل ثلث القرآن، فإنّ مقاصده منحصرة في بيان العقائد و الأحكام والقصص، و قد استوفت العقائد لمن أمعن النظر فيها. عن النبي صلى الله عليه و سلم: " **أُسست السموات**

السبع و الأرضون السبع على { قل هو الله أحد } " أي: ما خلقت إلاَّ لتكون دلائل توحيده، و معرفة ذاته، التي نطقت بها هذه السورة الكريمة.

و عنه صلى الله عليه و سلم أنه سمع رجلاً يقرؤها، فقال: " **" وجبت " فقيل: و ما وجبت؟ فقال: " الجنة "، و شكى إليه رَجُلٌ الفقرَ و ضيق المعاش، فقال له صلى الله عليه و سلم: " إذا دخلت بيتك فسَلِّم, إن كان فيه أحد، و إلا فسَلِّم عليّ و اقرأ: { قل هو الله أحد } " ففعل الرجل، فأدرّ اللهُ عليه الرزق، حتى أفاض على جيرانه "** ، و خرّج الترمذي: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه و سلم قال: " **من قرأ { قل هو الله أحد } مائتي مرة في يوم غُفرت له ذنوب خمسين سنة، إلاّ أن يكون عليه دَيْن "** ، و في الجامع الصغير أحاديث في فضل السورة تركناه خوف الإطناب.

الإشارة: قد اشتملت السورةُ على التوحيد الخاص، أعني: توحيد أهل العيان، و على التوحيد العام، أعني: توحيد أهل البرهان، فالتوحيد الخاص له مقامان: مقام الأسرار الجبروتية، و مقام الأنوار الملكوتية، فكلمة (هو) تُشير إلى مقام الأسرار اللطيفة الأصلية الجبروتية.

و (الله) يشير إلى مقام الأنوار الكثيفة المتدفقة من بحر الجبروت؛ لأنّ حقيقة المشاهدة: تكثيف اللطيف، و حقيقة المعاينة: تلطيف الكثيف، فالمعاينة أرقّ، فشهود الكون أنواراً كثيفة فاضت من بحر الجبروت مشاهدة، فإذا لَطَّفها حتى اتصلت بالبحر اللطيف المحيط، و انطبق بحر الأحدية على الكل سُميت معاينةً، و وصفه تعالى بالأحدية و الصمدية و التنزيه عن الولد و الوالد يحتاج إلى استدلال و برهان، و هو

مقام الإيمان، و الأول مقام الإحسان, فالآية من باب التدلي.

قال القشيري: يقال كاشَفَ تعالى الأسرارَ بقوله (هو) و الأرواحَ بقوله: (الله) و كاشف القلوبَ بقوله: (أحد) و كاشف نفوسَ المؤمنين بباقي السورة. و يُقال: كاشف الواهين بقوله: (هو) و الموحِّدين بقوله: (الله) و العارفين بقوله: (أحد) و العلماء بالباقي، ثم قال: و يُقال: خاطب خاصة الخاص بقوله: (هو) فاستقلوا، ثم خاطب الخواص بقوله (الله) فاشتغلوا، ثم زاد في البيان لمن نزل عنهم، فقال: (أحد)، ثم نزل عنهم بالصمد، و كذلك لمن دونهم. هـ. و قال في نوادر الأصول: هو اسم لا ضمير، من الهوية، أي: الحقيقة. انظر بقية كلامه.

قال شيخ شيوخنا، سيدي عبد الرحمن العارف: و الحاصل: أنَّ الإشارة بـ " هو " مختصة بأهل الاستغراق و التحقُّق في الهوية الحقيقة، فلانطباق بحر الأحدية عليهم، و انكشاف الوجود الحقيقي لديهم، فقدوا مَن يشار إليه إلاّ هو، لأنّ المشار إليه لما كان واحداً كانت الإشارة مطلقة لا تكون إلاّ إليه، لفقد ما سواه في شعورهم، لفنائهم عن الرسوم البشرية بالكلية، و غيبتهم عن وجودهم، و عن إحساسهم و أوصافهم الكونية، و ذلك غاية في التوحيد و الإعظام. منحنا اللهُ ذلك على الدوام، و جعلنا من أهله، ببركة نبيه عليه الصلاة و السلام. و بالله التوفيق، و صلّى الله على سيدنا محمد و آله.